

الوافي في الوفيات

وقف على جزء من التذكرة التي لي فلما أنهاه مطالعةً كتب عليه بقلمه المليح السعيد :
طالعتُ هذا السفر فإذا هو مُسفرٌ عن روض يانع الثمار وبحر تتدفّق معانيه الغزار وكنز
ينثر على الطلبة سبائك الذّصار وربيع أهل المغاني بمعانٍ تُطرب بالسموع ويدعو ترجيع
ألحانه الطير إلى الوقوع وجمع بديع لا نظير له في الآحاد ولا في الجموع فاجتلتِ النفسُ
معانيه البديعة لمّا استهلّـتْ ونهلتْ منه عند موردها وعلّـتْ وعلمت أن لا زبدة لجريها
في هذه الحلبة فتسلّـتْ . فإِ هذا الدوح الذي دحا " زهرَ الآداب " صلاحُ غرسه وما أبدع ما
نمّـقته يدُ كاتبه من الوشي المرقوم في طـرسه فلو أنصفه مشايخ الأدباء لأطلعه كلُّ منهم
شمساً ينظر إليها بعين الحـرباء .

وكتب بعد ذلك شمس الدين محمد بن عبد الرحمن المعروف بابن الصائغ :
إنّـ الحسود عندما ... عاينـ ذا الحسنـ افتتنـ .
وقال : لا بدّـعـ إذا ... أتـي عليّـ بالحـسنـ .

وكان الذي كتبه القاضي علاء الدين على أول الجزء وكتب شمس الدين بعد ذلك في آخره :
طالعتُ هذا الجزء واجتليتُ قمره واجتنيّتُ ثمره وسرّـحت الناطر وشرحتُ الخاطر ووجدته قد
اشتمل على ما يملأُ القلب والسمع وألفيته واحداً في نوعه يشهدُ لجامعه بحسن الجمع . فقد
سلطت أنوارُه وأينعت أزهارُه ودليلُ على اللبيب اختيارُه ؛ فعلقتُ منه طرائفَ بدعة
ولطائفَ صنيعه ولو أنصفتُ لعلقتُ جميعه . فلمّا وقفتُ على الأول والثاني قلت في ذلك
:

إنّـ أوراقاً جمعتُ بها ... لفظـ أهلـ الفضلـ والزّـيّنـ .
طرّـرت من هاهنا وهنا ... فأنا بين الطرازـيّنـ .
ووقف القاضي علاء الدين على ما نظمته قديماً وهو بيتان :
إنّـي لأعجبُ من صدودكـ والجفا ... من بعدـ ذاك القربـ والإيناسـ .
حاشا شمائلكـ اللطيفةـ أن تُرى ... عوناً عليّـ مع الزمان القاسيـ .
فكأـزّـهما أعجابه فقال مجيزاً لهما :
أوَـثغرُكـ الصافي يردّـ حُـشاشتي ... تشكو لهيباً من لظى أنفاسيـ .
تأبّـ ما هذي طباءُكـ في الهـوى ... لكنّـ حظوظُ قُـسّـمت في الناسـ .
فأنشده لي أيضاً :

يا مَن تناسى ودادي بعد معرفةٍ ... وقد غدا طوعَ لُـوـّـامٍ وعُذّـالـ .

ما أنتَ أوَّـلَ محبوبٍ ظفرتُ به ... من الزمان فخابتُ فيه آمالي .

فأنشدني من لفظه لنفسه : .

هجرتُ عَزَّـةً وزادت دلالا ... وتوارتُ إذْ زرتُها عن عياني .

لا تخافي إذا التقينا عتابا ... ذاك حظِّي عرفتُهُ من زماني .

فنظمتُ في هذه المادة : .

إن أتيتَ الحمى فقلْ لبدورٍ ... حبُّهم لذِّ لي وإن كان آذى .

ما لكم في البعاد وإِ ذنبٌ ... سوءُ حظِّي الذي قضى لي بهذا .

فأنشدني من لفظه لنفسه : .

قال لي عاذلي : تَسَلِّـَّ إلى كم ... أنتَ تهوى وذاك بالهجر مُغرى ؟ .

قلتُ : أمَّـا الجفا فمن سوء حظِّي ... وسلُّوِّـي فلا وهَّـى وأنتَ أَدري .

فقلتُ أنا أيضا : .

أَتُحَرِّقُ أحشائي وتُجري مدامعيأَـ أنتَ عدوٌّ أم تقولُ حبيبٌ ؟ .

وما أنتَ ممَّـن خان عهدَ محبِّـه ... ولكنَّ حظِّي في الغرام عجيبٌ .

وأنشدني لنفسه تخميس الأبيات السنيَّة التي بيني وبينه وهو : .

كُفَّـي عتابك قد جرى ما قد كفى ... شفَّـ الضَّـغنى جسدي فصرتُ على شفا .

تعدِّـنَ وصلًا ثم تجتنبني الوفا ... إنَّـي لأعجبُ من صدودك والجفا .

من بعد ذاك القرب والإيناس .

قد صرتُ أقنع بالخيال إذا سرى ... فعدا عليَّـ الدهرُ إذْ سلب الكرى .

ها فاسدٌ كتي لا تُسعديه على الوـرَـى ... حاشا شمائلك اللطيفة أن تُرى .

عوناَّ عليَّـ مع الزمان القاسي .

أم أنَّـ عدلَكَ لا يُزيل ظُلامي ... وضِـيا جبينك لا يردُّ ضلالي .

أو حسنُ لفظك لا يجيبُ مقالتي ... أو ثغرُك الصافي يردُّ حُشاشتي .

يشكو لهيباً من لظى أنفاسي .

خلَّـيتَنِي والعودَ في حالٍ سوا ... وتركتني حـلْفَ السَّـهادِ مع الجوى